

## تحول السلطة في الفكر الغربي المعاصر

م.و. رنا مولود شاكر<sup>(\*)</sup>

### ملخص البحث:

تعد السلطة على وفق منظور الفكر الغربي المعاصر، قوة منظمة ذات قدرة عالية على تحقيق الاستقرار والأمن المجتمعي، لأنها تمتلك أدوات تستند الى التنظيم العقلاني مما يساعدها على ضبط سلوك الفرد والمجتمع، ومنعهم من ممارسة عمليات الأقصاء والتمييز والظلم ضد الآخر سعياً وراء تحقيق مصالحهم وحاجاتهم، هذه الرؤية استطاع فلاسفة ومفكري نظرية العقد الاجتماعي من ترسيخها، مما غير من شكل وطبيعة السلطة من الموروث التقليدي الى البناء التنظيمي الذي أسهم في تطور وأرتقاء المجتمع المدني- السياسي الغربي، وعلى الرغم من نجاح هذه التجربة لاسيما بعد ضمان وحماية الحقوق والحريات الإنسانية وفق الأطر الدستورية والقانونية، إلا أن عملية تحول السلطة في ظل عولمة الديمقراطية انحرفت عن مسارها الطبيعي للتطور وفقدت عناصر قوتها وتوازنها بسبب هيمنة ونفوذ النخب الاقتصادية على العمل السياسي مما انعكس سلباً على البنية الفكرية والسياسية للديمقراطية الليبرالية.

### المقدمة:

تعد السلطة أحد أهم أسس التنظيم الاجتماعي والسياسي لأي مجتمع، ونشأت هذه الأهمية من حاجة أفراد المجتمع للتعاون والتفاعل فيما بينهم، لتحقيق الاستقرار ووضع حد للصراعات القائمة على الأقصاء والتهميش والتمييز للحصول على أكبر قدر ممكن من القوة والثروة، ومثلت عملية التفرد بالسلطة أداة لتحقيق ذلك في حين الهدف من تأسيسها أن تكون أداة لتنظيم شؤون المجتمع وضمان حقوقه

<sup>(\*)</sup> جامعة بغداد/مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية



ومصالحه، عن طريق وضع تشريعات قانونية وأخذ قرارات سياسية تضمن حقوقهم وحررياتهم وتعمل على حمايتهم، وفق مبادئ المساواة والعدالة مما يسهم في استمرار الأستقرار والأمن والقضاء نهائياً على كل صورة من صور الصراع.

أن مهمة السلطة هو قيادة المجتمع لنقله من واقع مثقل بالمشكلات والصراعات الى واقع أكثر إشراقاً وتطوراً، لكن هذا المسار قد انحرف عن ذلك وأخذ مسارات مختلفة، سببت استمرار الصراع بين من يملك السلطة ومن يخضع لها، وبين المجتمعات مع بعضها البعض بسبب أطماع حكامها للحصول على الثروات وتوسيع الممالك، لتتحول السلطة في أحيان كثيرة الى مصدر للشر وبعيدة عن الخير، هذا الأمر دفع الكثير من الفلاسفة والمفكرين للبحث عن ماهية السلطة وما أصل مصدرها وشرعيتها، وما الذي يجب ان تكون عليه وطبيعة شكلها وممارستها للعمل السياسي، وهذه التساؤلات قادت لاحقا لولادة العديد من النظريات السياسية، وسأهت على مدى التاريخ الأنساني لتطوير نظرية السلطة وانتقال وجودها ومصدرها وشرعيتها وتأثيرها في المجتمع، الى إتجاهات متعددة ومختلفة عبرت عن طبيعة كل مجتمع وحاجاته ومتطلباته في كل مرحلة من الزمن.

وعملية التطور هذه قادت لتحول السلطة من أفق وجودها الضيق المرتبط بالوهية والنفرد بمقاييد الحكم والسيطرة عليها، الى مأسسة السلطة على وفق قوانين وتشريعات تضمن وتحمي الحقوق والحرريات، لتصبح السلطة أداة فعلية لتنظيم المجتمع والعمل على إستقراره وأزدهاره، وهو ما تمكن من تحقيقه المجتمع الغربي المعاصر، لكنه في الآونة الأخيرة بدأ مسار السلطة بالتراجع مجدداً بسبب هيمنة النخب الاقتصادية على أدوات العمل السياسي وأدت الى تراجع مسار نظرية السلطة وتشويه الهدف من وجودها والسيطرة على مصادرها وأدواتها لتحقيق أجندات فكرية وسياسية واقتصادية ضيقة، مما أدى الى اختلال عملية التوازن السياسي للسلطة وأضعف من قدرتها وأمكاناتها وكفاءتها الى حد الأضرار بالصالح العام.

الفرضية: إن عملية تحول السلطة في الفكر الغربي المعاصر قد انحرفت عن مسارها على وفق المنظور الفكري الديمقراطي الذي اسست لأجله، نتيجة لهيمنة النخب الاقتصادية



على مصادر السلطة وتوظيفها لمصالحهم الخاصة، مما أدى لإضعاف عملية تطور المجتمع المدني - السياسي الغربي المعاصر .

قسم البحث الى مبحثين رئيسيين وكالآتي:

المبحث الأول: الأسس الفكرية لنظرية السلطة

المبحث الثاني: مستقبل السلطة في ظل عولمة الديمقراطية

المبحث الأول: الأسس الفكرية لنظرية السلطة

أولاً: ماهية السلطة

عد مفهوم السلطة من المفاهيم التي أخذت حيزاً كبيراً في البحث والتحليل على مستوى الفكر السياسي الغربي، كما أن إرتباطها بشكل وثيق بالظواهر السياسية لعلم الاجتماع السياسي أسهم في تعدد وتنوع الطروحات الفكرية لنظرية السلطة، وعبرت عن وجهات وإتجاهات فكرية وسياسية ودينية وأيديولوجية مختلفة، لذلك عرف البعض السلطة بأنها تمثل "قوة نظامية وشرعية في مجتمع معين ومرتبطة بنسق المكانة الاجتماعية ومتفق عليها من قبل جميع أعضاء المجتمع"<sup>(١)</sup>، ومعنى ذلك أن السلطة مهمتها الأساسية تنظيم حياة المجتمع وتلبية متطلباته المختلفة وهمايتنا من أي خطر قد يعترضها، وهذه المهمة نابعة من شرعيتها وقوة إرادة المجتمع لأنه أصل وجودها.

أما بارسونز يعرف السلطة بأنها "القدرة على القيام بوظائف معينة خدمة للنسق الاجتماعي بأعتبره وحدة واحدة ومشاركة في إتخاذ القرارات"<sup>(٢)</sup>، ووفقاً لهذا التعريف نجد أن السلطة موجودة في عمق العلاقات الإنسانية، وطبيعة هذه العلاقات تتطلب وجود فئتين الأولى تحكم والثانية محكومة بغض النظر عن الطبيعة التراتبية للسلطة، إذ قد تكون على مستوى القيادات الحزبية أو المؤسسات السياسية أو الدينية أو العلمية والأقتصادية وصولاً الى المجتمع ككل الذي يخضع لسلطة الدولة، أن مسألة التقسيم بين الحاكم والمحكومين نابعة من قبول ورضا الإرادة الجماعية وتمثل الأصل لشرعية أي سلطة، غير ان فكرة الشرعية وأصل مصادرها لاتستمد وجودها من رضا وقبول الجماعة، لأن هناك معايير ومصادر أساسية ومختلفة تحدد أيضاً شرعية السلطة، هذا



الأمر هو ما سعى (ماكس فيبر)<sup>(١)</sup> إلى تسليط الضوء عليه، وأعتمد أساليب فكرية وعلمية مبتكرة ومختلفة عن السابق عند دراسته وتحليله لظاهرة السلطة السياسية وأصل شرعيتها، وقدم تصنيفا عنها واضح المعالم والدلالات ينقسم إلى ثلاث فئات رئيسية هي "السلطة التقليدية وتستمد شرعيتها من الاعتقاد الراسخ بقداسة التقاليد والأعراف المتوارثة والمتفق عليها خاصة المكانة الاجتماعية المرموقة، وسلطة القانون القائمة على أسس عقلانية وتستند شرعيتها من القواعد الموضوعية المجردة وتمثل أصل قوتها في الحكم، والسلطة الكارزمية ومصدرها الولاء المطلق لشخصية ملهمة تتسم بالقدسية أو البطولة، لتكون مثال يحتذى به من قبل الجميع"<sup>(٢)</sup>.

أن السلطة الأولى ووفقا لتصنيف (فيبر) نجدتها تستمد شرعيتها وأستمرار وجودها من الأعراف والتقاليد المتوارثة والمترسخة في البنية الفكرية والاجتماعية لمجتمع ما، مثل المجتمعات التي تدين بولائها للسلالات الملكية وحق توليها للسلطة، أما السلطة الثانية تستمد شرعيتها من الضوابط القانونية الصادرة من العقل المجرد عن الأهواء والمصالح الشخصية، وتتسم هذه الضوابط بالتنظيم الفاعل والمسيطر على سلوك كل فرد في المجتمع، وتسعى لإدارة شؤونهم ومتطلباتهم وحميتهم بشكل متساوي ومتوازن والقانون وحده من يضمن ذلك، وتمثل المجتمعات الديمقراطية من أهم من يدين بالولاء لمثل هذا النوع من السلطة، وتجدر أن قوانينها الوضعية قادرة على منحهم الأستقرار والرفاهية، لذلك فإن احتمالية فقدان كلا السلطتين لشرعيتهما وأستمرارهما في الحكم أمر يصعب حدوثه وتكراره، على العكس من السلطة الثالثة إذ شرعيتها مستمدة من تفرد شخص ما في الحكم، لأستثثاره بالسلطة تحت مسميات القداسة أو البطولة وحتى لأمتلاكه القوة، وهذا النوع يتجه دوما نحو الابتعاد عن التنظيم الهادف والبناء لمصلحة المجتمع، وهدفها التركيز على تحقيق غايات شخصية بحتة، ولا توازن بين المصالح الخاصة والعامّة وإنما تعمل على إعلاء الأولى من دون الأخرى، لذا تتعرض دوما لفقدان شرعيتها وأستمرار وجودها في الحكم، لاسيما حينما تبالغ في إستخدام أساليب القوة والأكراه المادي ضد المجتمع لتنفيذ قرارات سلطتها.



ونرى أن كل من السلطة التقليدية والقانونية تستخدمان أيضا القوة والأكراه المادي، من أجل ضبط سلوك الأفراد وإلزامهم بأطاعة قرارات السلطة حفاظا على النظام العام، بمعنى ان إستخدامهما لذلك يكون عند الحاجة القصوى، أي في حالة حدوث فوضى تهدد أمن المجتمع وسلامته، ودون ذلك لا تستخدم أي قوة أو ممارسة إكراه مادي ضد الأفراد لأن بأرادهم الحرية العقلانية سيلتزمون بالقانون واحترام النظام العام وحميته، لذلك قواعد القانون عامة ومجردة لكنها تتمتع بالأكراه المادي كوسيلة للردع ضد كل من يخالفها أو يتجاوز عليها، على عكس السلطة الكاريزمية إذ تتمادى في استخدام ذلك سعيا للحفاظ على وجودها في السلطة وليس من أجل صالح المجتمع وحماية أمنه وأستقراره.

لذلك عُرفت السلطة بأنها "ممارسة نشاط ما على سلوك الناس أي التأثير في ذلك السلوك وتوجيهه نحو الأهداف والغايات التي يحددها من له القدرة على فرض إرادته، ولن تكون وسائل السلطة في تحقيق ذلك أستعمال القوة وحسب وإنما بأمكانها تحقيق تلك الأهداف بواسطة السطوة أو الصيت أو الموقع الاجتماعي وحتى بواسطة سلوك ما يعده المجتمع سلوكاً فاضلاً يرفعه الى مرتبة أن يكون قدوة أو إغموذجاً"<sup>(1)</sup>.

إذن من يمسك بالسلطة يتطلب منه أن يمتلك القدرة للتأثير في سلوك الحكوميين، لدفعهم نحو تطبيق وممارسة سلوكيات محددة ترتبط بشكل أو بآخر بتوجهات السلطة القائمة ومن يديرها، وهذا النوع من التأثير يسمى بالتأثير المقصود بفعل التوجهات الفكرية والأيدولوجية للسلطة تجاه المجتمع، وأدوات وإجراءات هذه العملية تختلف من مجتمع لآخر، تبعاً لبنيته الفكرية والاجتماعية لذا تأثيرها يختلف أيضا، والسلطة ذات النفوذ القسري وتمارس القوة والأكراه المادي لضمان شرعيتها، تسود دوما في المجتمعات التي تفتقر للوعي السياسي ولا تمتلك رؤية واضحة عن التنظيم المؤسسي والوظيفي للسلطة، وتنظر الى مكانتها ونفوذها لا الى دورها وإنجازاتها لأجل الصالح العام.

أما السلطة التي تمتلك إرادة تستند الى التنظيم العقلاني وتسعى دوما الى ضمان التوازن بين المصلحة الخاصة والعامة، توجد دوما في المجتمعات التي تتمتع بالأنفتاح الفكري



وتمتلك وعي سياسي وقوة إدراك لما يجب أن تكون عليه السلطة، وطبيعة وظيفتها تتمثل في تحقيق غايات المجتمع وحماية أمنه وممتلكاته والحفاظ على رفاهيته، كما أنها تتقبل إستخدام السلطة أسلوب القوة والأكرام المادي، طالما أنه يميل نحو الاعتدال في ممارسته وأن الهدف من إتباعها له يكون لأجل حماية أمن وأستقرار النظام العام وإلزام المخالفين بتطبيق قرارات السلطة وقوانينها.

مما تقدم نجد أن مفهوم السلطة مفهوماً غير متفق على تعريفه ويصعب تحديده بشكل دقيق، لأسباب عدة يمكن تلخيصها بالآتي:

١- ان الأهتمام بدراسة السلطة كظاهرة إجتماعية وسياسية منذ العهد الأغريقي وحتى وقتنا المعاصر، أسهم بظهور نظريات وأفكار سياسية متباينة حول طبيعة السلطة وأشكالها ومنظورها التفاعلي، نتيجة لأختلاف التوجهات الفكرية والأيدولوجية المرتبطة بنمط تفكيرهم، وذلك تبعاً لطبيعة بينتهم مما أدى الى زيادة صعوبة تحديد وتحليل ماهية نظرية السلطة.

٢- ان السلطة ووجودها أرتبط بمتطلبات وحاجات المجتمع وتطوره، وسلسلة التطورات التي مر بها المجتمع إنعكست بشكل مباشر على نظرية السلطة ومفهومها، وقادت نحو ظهور نظريات سياسية متعددة تتعلق بأشكال السلطة ووظائفها وطبيعة إدارتها وعلاقة الحاكم بالحكومين، والتي أختلفت من مجتمع لأخر تبعاً لطبيعته الفكرية والاجتماعية والسياسية.

٣- يضم مفهوم السلطة العديد من المعاني والدلالات، منها يرتبط بالتوجهات الفكرية وطبيعة البيئة الأجتتماعية وشكل نظام الحكم، مما أسهم في ضعف تحديد مفهوم محدد ومتفق عليه في آن واحد من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة تحديد طبيعة العلاقات الأجتتماعية والسياسية التي تحدث على مستوى المجتمع الواحد أو مع المجتمعات الأخرى وما ينتج عنها من صراع أو تعاون فيما بينهم، نتيجة لأختلاف تفسير وتحديد مفهوم السلطة ومصدر وجودها وشرعيتها.



هذه أبرز الأسباب التي أسهمت في إتساع نطاق مفهوم السلطة، وضاعت من صعوبة إيجاد تعريف جامع لها، إذ تنوعت التعريفات حولها إنطلاقاً من إختلاف الرؤى ووجهات النظر عنها من قبل الفلاسفة والمفكرين السياسيين على مر العصور. لذلك يمكننا القول أن السلطة تمثل قوة فعل إرادة فردية أو جماعية تمتلك القدرة الكاملة لإدارة شؤون الحكم والمصالح العامة بعد حصولها على رضا وقبول الإرادة الجماعية لاجتماع ما، مما يكسبها الشرعية الفعلية لإدارتها وفق شروط ومتطلبات تلك الإرادة الجماعية، وهنا يبرز مدى مؤهلات صاحب السلطة لاسيما قدرته في فرض وجوده وتأثيره على سلوك أفراد المجتمع، وبشكل يضمن تحقيق التوازن بين الاستمرار في السلطة وبين القدرة والكفاءة في إنجاز حاجات ومتطلبات المجتمع ككل.

### ثانياً: السلطة من المسار التقليدي الى العقلاني

ان الفوضى السياسية والاجتماعية التي أستمرت في أوروبا، بسبب الصراعات والحروب الدينية نتيجة للصراع ما بين السلطين الزمنية والدينية، ونشوب الحروب الدينية بعد توسع حركة الإصلاح الديني وظهور البروتستانتية<sup>(٦)</sup>، شكلت حافزاً لدى الجميع للتخلص من النظام الثيوقراطي وتحرير السلطة الزمنية من قيود الكنيسة والعمل على الغاء ألوهية السلطة، وعلى الرغم من تحقيق هذه الأهداف إلا أن الحكم بموجب الحق الألهي أنتقل للسلطة الزمنية بعد إضعافها لنفوذ الكنيسة، لتصبح أشد استبدادية عما سبقها، مما تطلب تغيير مسار نظرية والسلطة عبر البحث عن أصل وجودها وماهو دورها والأسباب التي تدفع الى الأعتتماد عليها لتقرير مصير وحقوق المجتمع.

وأتخذت الأطروحات الفكرية (هوبز) هذا المسار إذ إعتمد المنطق العقلي في بحشه عن أصل مصدر السلطة لتفنيد فكرة ألوهية السلطة وأكد أن السلطة السياسية نتاج فكري واجتماعي من صنع البشر، والرغبة الفعلية لدى كل فرد تحقيق مصلحته الخاصة والبقاء في الحياة والتمتع بالأمن، وهذا ما تقدمه السلطة له لذلك يجب ان تتمتع بالقوة اللازمة والتي تستمدّها من القانون الطبيعي، وبدوره سيمنح حق البقاء والتقدم الذي ينشده الجميع، وبما أن القانون الطبيعي وفق الرؤية السابقة للفلاسفة والمفكرين يمثل



القواعد العامة التي أنتجها المنطق العقلي لكل فرد وحظى برضا وقبول الجميع، ويمتلك القدرة على حماية الانسان من قوة أخيه الانسان وتمنعه من سلب حرياته وحياته وممتلكاته، بمعنى أن أصل علاقات الافراد في حالة الفطرة قائمة على تحقيق الفضائل الأخلاقية والخير العام، لان الفرد كائن إجتماعي بطبعه.

لكن (هوبز) رفض هذه الرؤية، وبين ان أصل العلاقات بين أفراد المجتمع الفطري من أجل الحفاظ على وجودهم وحماية أنفسهم من الخطر، ووجود القانون الطبيعي كجزء منظم لتلك العلاقات ليس له علاقة بالفضيلة والخير العام، وإنما لتحقيق منفعة ما يرغب بها، وهو السلوك الطبيعي للانسان وتتميز بالأنوية المطلقة، ولا يهتم ان كان ما ينتج عنها تؤدي الى الأضرار بالأخر، لأن هدفه الوصول لحاجاته وتحقيق رغباته، وهذه حقيقة ما يعيشه المجتمع في العصور الوسطى وما قبلها التي اعطت أسبقية المجتمع وهيمنته على الفرد وحقوقه، وبين ان هذا التصور هو ما رسخه الموروث التقليدي والذي لا يتطابق مع المنطق العقلي، لأن "الأصل في طبيعة الفرد هي بجنه عن خيره وأمانه وهو سلوك يهيمن عليه على سلوكه الفرادنيومصالحه ولا يهتمه مصلحة المجتمع ووجوده فيه وتفاعله معه لأدراكه ان حاجاته ومتطلباته ستتحقق بشكل اكبر مما لو كان بمفرده، لذلك يعد الفرد قيمة مطلقة وعليا وان هدف كل ماعة حماية حقوقه لان مصلحته فوق مصالح الجماعة"<sup>(1)</sup>.

هذه الرؤية عدت البداية الفعلية لولادة ما يعرف اليوم بالمذهب الفردي، والذي لعب دوراً مهماً في تطور الأفكار والنظريات السياسية لاحقاً، و(هوبز) هو المؤسس الفعلي لها وان تركيزه على فكرة الفردانية وعدها الأصل لكل إجتماع سياسي قد إستندت على تحليله لطبيعة السلوك الأنساني بشكل واقعي وعقلاني، وكانت لديه غايات متعددة تقف خلف طروحاته الفكرية عن المذهب الفردي، إذ إستخدمها كآلية فاعلة للقضاء على كل شكل من اشكال الموروث التقليدي التي تبرر هيمنة المجتمع على الفرد، لذا شدد على ضرورة " ان يكون الفرد على المستوى الأجماعي الغاية الأساسية وهي تصب في صالح حريته المطلقة وعلى المستوى السياسي يصبح هو مركز العمل السياسي لأن أصل وجود السلطة خدمة وحماية حقوقه الفردية ومنع أي تضيق



لنشاطاته وأهدافه الخاصة"<sup>(١)</sup>، كما وظفها بشكل ذكي لخلق تبرير واقعي ومقبول من الجميع حول أطروحاته عن السلطة المطلقة والتي يجب أن تخضع لحكمفرد واحد وكل اختصاصا مما بيده، لذلك رفض فكرة "الحكم المختلط ولا يؤمن بفكرة نظام الحكم المقيد لأن تجزئة السلطة تعرضها للضعف تدريجيا وصولا للأفكار لذلك يجب ان تركز كل السلطات القانونية والدينية والأجتماعية بيد صاحب السلطة بشكل مطلق"<sup>(٢)</sup>، والسلطة كلما تركزت بيد واحدة ستكون ذات إرادة حرة وقوية وقادرة على حماية أفراد وتضمن تحقيق الاستقرار، أما تجزئتها سيقود الى الضعف والأختلاف فالتراع لتعم الفوضى وينعدم الاستقرار.

ويرى ان الرغبة في التعايش والأستمرار في الحفاظ على الحياة في ظل نظام الحكم الفردي لا يتحقق إلا في ظل المجتمع المدني- السياسي، لذلك يجب على أفراد المجتمع الانتقال من حالة الطبيعة والتي تمتاز "علاقات أفراد مجتمعها بحب الذات والريبة والنافس والبحث عن المجد، مما جعل من شريعة الغاب والبقاء للأقوى الطبيعة السائدة فيه ونتج عنها الصراع بين الميع وتحول الإنسان عدو لأخيه الإنسان وأنعدم التميز بين الخطأ والصواب والعدالة والظلم ولم يأمن أحد على حياته وممتلكاته"<sup>(٣)</sup>، أن حالة الطبيعة للمجتمع كان يسودها الخوف والترقب من الجهول والظلم، لذلك كانوا دوماً يبحثون عن الأمن والاستقرار وهو ما يميز حالة المجتمع المدني- السياسي وللانتقال اليه يتطلب توحيد الإرادات والمصالح وإخضاعها بيد إرادة واحدة تمثل السلطة العليا التي ستوفر ما أفتقدوه في الحالة الأولى، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق اتفاق يرم بين الجميع ومنه تبتق السلطة السياسية وأطلق عليه تسمية (العقد الأجماعي).

ويمثل صيغة قانونية وسياسية يتفق عليها كل افراد المجتمع لأقامة سلطة سياسية تؤهلهم للانتقال من الحالة الأولى الى الثانية، مع إدراكهم أنهم سيخضعون بإرادتهم لسلطة الحاكم ويلتزمون بإطاعته مقابل ان يوفر لهم الأمن والأستقرار، وصاحب السلطة لا يخضع لأي إرادة ولا يحاسب بأي قانون لأنه يمثل الإرادة العليا وسلطته فوق أي قانون لذا هو خارج أطار العقد وغير ملزم به، وعدت نظرية العقد الأجماعي من أهم النظريات السياسية الحديثة، والتي وضعت أسس البناء الفكري لنظرية السلطة وفق



رؤية فكرية متحررة من قيود أفكار الماضي، والمغركة بضيق الأفق في التفكير والتطبيق عند ممارسة السلطة، أن طروحات (هوبز) الفكرية شكلت نقلة نوعية على مستوى الفكر السياسي الغربي الحديث، وأثر بشكل كبير على نمط تفكير الفلاسفة والمفكرين الذين جاءوا من بعده، وعلى الرغم من ذلك نجد أن أفكاره المتحررة والمتجددة لم تستطع الخروج تماما من مسار الموروث التقليدي، لاسيما ما يتعلق بنظرية السلطة والتي لم يتغير فيها سوى نقل السلطة من الألوهية المطلقة الى الفردية المطلقة، وكلاهما يتميز بالاستبداد وأن أختلفت أوجه تطبيقه وممارسته.

هذا الأمر دفع (جون لوك) الى وضع أسس فكرية مختلفة لنظرية السلطة تكون أكثر تحمراً من القيود الفكرية والسياسية السائدة في المجتمع الغربي، والعمل على نقلها لجال أوسع يضمن فعلياً احترام وحماية الحقوق والحريات، ويشترط أنجاز ذلك وضع نظرية للسلطة تعتمد البناء التنظيمي لها، لتصبح السلطة نابعة من قيمتها الذاتية لا من قيمة من يمسك بها، عندها يتحقق فعلياً الاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي، وأشار أن نظرية (هوبز) على قدر سعيها بتحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع، لكنها نقلته من حالة الفوضى الكاملة الى الفوضى المقيدة، عندما فضل التضحية بالحقوق والحريات الفردية وتقييدها بالإرادة الفردية لصاحب السلطة لدعمها كلياً ونتج عنها ولادة نوع جديد من الاستبدادية، لأنه تصور حالة الطبيعة بشكل سلبي ويضم كل الشرور، وهي في حقيقتها تتمتع "بالسلام والاستقرار والتعايش المتبادل بما يضمن الحفاظ على الذات والناس فيها متساوون في الحقوق والحريات والملكية بموجب القانون الفطري الذي ولد مع البشرية وأستخدمه العقل الأنساني لتوجيه وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية وأسس التعامل والتعاون فيما بينهم"<sup>(1)</sup>.

إذن حالة الطبيعة لديه تخلو من الحرب والصراع لتحقيق غايات فردية بحتة وتتسم بالاستقرار، لكن طبيعة العلاقات بين أفرادها إجتماعية فقط، ولا يوجد فيها أي تنظيم سياسي إذ تخلو من وجود السلطة، وسعى المجتمع الانتقال من حالة الطبيعة الى حالة المجتمع المدني - السياسي أرتبطت برغبتهم في تنظيم أمورهم وفق قوانين تلي حاجاتهم المتطورة، وعلى الرغم أن القانون الطبيعي يعد القانون الأسمى في ظل حالة الطبيعة،



لكنه لا يصلح في حال انتقاهم لمرحلة أكثر تطوراً ويتطلب وجود قوانين تنظم طبيعة العلاقة فيما بينهم وتمتلك القدرة للحفاظ على مصالحهم وممتلكاتهم، وهنا يأتي دور السلطة التي تمتلك الصلاحيات والقدرات لتحقيق ذلك، لذا لا يمكن تصور وجود مجتمع مدني - سياسي دون سلطة تسهم باستمرار حياة التعايش والاستقرار، لذلك ركز (لوك) في نظيره للسلطة في البحث عن مصادر وآليات تنظيمها وطرق ممارستها لذا وضع رؤيته الفريدة عن العقد الاجتماعي الذي يوفر جميع تلك المتطلبات، وتميز بأنه "ثنائي التعاقد إذ يضم طرفين الأول هم الأفراد ويتنازلون عن جزء من حقوقهم وحررياتهم مقابل إنشاء السلطة لتنظيم حياتهم، والثاني يمثل من يدير السلطة وهو جزء من هذا العقد وسلطاته مقيدة بإسم القانون وملزم أمامه بتنفيذ شروط العقد المتمثلة بحماية حقوقهم وحررياتهم وملكياتهم"<sup>(٢)</sup>.

وعملية التنازل بموجب العقد ليست مطلقة وإنما جزئية وضمن حدود التعاقد التي تنشأ عبرها السلطة، اما طبيعة السلطة فأنها مقيدة بحكم التزاماتها مع الطرف الآخر ومتى ما أخلت بالتزاماتها وواجباتها، يحق للطرف المتضرر أي المتعاقدين عدم طاعة السلطة والخروج عنها، وحتى القيام بثورة ضدها إذ أنحرفت تماماً عن مسار العقد وأهدافه، ولمنع حدوث ذلك طرح (لوك) فكرة تقسيم السلطة ووضع حدود فاصلة فيما يتعلق بطبيعة وظيفتها وصلاحياتها السياسية والقانونية، وضم تقسيمه ثلاث أشكال رئيسية هي "السلطة التشريعية وهي الأعلى شأنًا وتمثل القانون الوضعي الأول في المجتمع المدني السياسي وهي سلطة مقدسة لأنها مستمدة من إرادة المجتمع، السلطة التنفيذية وتمثل السلطة العليا لإدارة شؤون المجتمع المدني - السياسي، لكنها لا تسمى على السلطة التشريعية وصلاحياتها، ومهمتها تنفيذ القوانين، السلطة التعاقدية وأطلق عليها تسمية السلطة الفيدرالية وتختص" بوضع السياسات الخارجية وأقامة التحالفات والمعاهدات وأعلان حالة الحرب والسلام ضمن نطاق اختصاصها"<sup>(١)</sup>.

ان الهدف الأساس من تقسيم السلطة هو منع إساءة استخدامها وأنحرافها عن بنود التزامات العقد، والحيلولة دون الأنفراد أو الاستبداد بها وشكلت هذه الطروحات الخطوات الأولى لتقييد السلطة المطلقة، كما عدت التطبيق الفعلي لتغيير مسار نظرية



السلطة ونقلها من الموروث التقليدي الى البناء التنظيمي، وأسهمت عملية التقسيم في تحديد وظائف واختصاصات كل سلطة على حده، وفصل نطاق عملها بشكل منفصل لكنه بذات الوقت مترابط ومتوازن في علاقتهم التفاعلية وبشكل يخدم الصالح العام، وهذه الآلية مهدت لظهور ما يعرف اليوم بالتنظيم المؤسساتي لسلطة الدولة بشكلها المعاصر.

أما (مونتسكيو) ركز في طروحاته عن نظرية السلطة على أن عملية إصلاحها وتنظيمها عبر صيانة وتطوير القوانين وفق المنطق العقلي، لذا ركز على القانون وتطويره، وعده الأداة القوية التي يمكنها السيطرة على سلوك الأنسان وتوجيه نحو الخير العام، والقانون الطبيعي يمثل قانون عام يصلح تطبيقه على الحالات العامة لكل شعوب الأرض والتي تعيش في حالة الطبيعة، لكنه لا يتوافق مع الحالات الخاصة ولا يراعي الخصوصيات الفكرية والثقافية لكل المجتمع الذي يعيش في حالة المدنية- السياسية، ولتحقيق الإصلاح والتطور يتطلب وجود قانون يتميز بالقوة والثبات وغير قابل للتغير ويتوافق مع خصوصية كل مجتمع، ليتمكن من السيطرة على السلوك السلي للأفراد ومنعهم من مخالفته أو التجاوز عليه.

هذه الرؤية هدفها الأساس " بناء المنظومة القانونية والمؤسسات السياسية وممارسة العمل السياسي، وبشكل يكمل كل منه بعضه الآخر وبالنتيجة يتمكن الجميع من المشاركة بالسلطة كما انشأوها معا وتصبح لدى الجميع القدرة الكلية على اختيار الحاكم وهذا ما يقود الى نشأة وتوطيد الفضائل الخاصة والمتمثلة بالاستقامة في احترام القانون والألتزام به"<sup>(٢)</sup>، وهنا يتم نقل السلطة وعملية ممارستها من الإرادة الفردية الى الجماعية، عبر مشاركة الجميع بصياغة القوانين التي تنظم علاقاتهم مع بعض من جهة، وتنظم طبيعة العلاقة بين الحاكم والحكومين من جهة أخرى، وتحقيق هذا الأمر يتوقف على مسألة التوازن وسيادة القانون وهيبة السلطة.

وما يخص مسألة التوازن فإن وجودها كجزء من السلطة ستمنح الشعور بالأمن والأستقرار، لأنها تحافظ على حقوقهم وحريةهم وممتلكاتهم، أما سيادة القانون سيدفعهم الى احترام السلطة والألتزام بقراراتها طالما هي الأخرى تخضع لسلطة وسيادة القانون



ذاته، ووجود كلاهما ستمنح السلطة الهيبة الأيجابية لا السلبية التي تتضمن الخوف والرعب منها، ومتى توفرت جميع هذه العناصر فإن صاحب السلطة أو من يدير شؤونها لن يتمكن يوماً من استغلالها لمصلحه الخاصة، لأن قوة القانون تدعم الحرية والعدالة، وكلاهما يمثلان الأعمدة الثابتة لسلطة القانون، ووجودهما سيخلق نظام حكم متوازن، أن إهتمامه بالحرية ينطلق من فكرة ان وجودها يسبق وجود الحق، فما نفع قانون ينظم الحقوق لكن لا توجد حرية تسمح بالتمتع بها وممارستها وفق رغبة الفرد، وأكد ان الحرية السياسية في أعلى سلم الحريات الأخرى وهي "لا تعني ان يفعل الإنسان ما يرغب وانما هي تمثل حقه في فعل ما يرغب ضمن الحدود التي تسمح بها القوانين وتتيح له عدم إجباره على فعل ما لايرغبه ولايتيح له فعل ما هو ممنوع او التعدي على القانون ومخالفته له"<sup>(١)</sup>، أن التمتع بالحرية لايعني ممارستها دون ضابط قانوني وإذ حدث ذلك سيقود للفوضى لتشمل كل المستويات، لذلك تنظيمها وفق القانون يضمن حمايتها من ذاتها ومن الآخرين، لهذا الحرية السياسية وفق منظوره الفكري هي المفتاح نحو كل الحريات الأخرى، لانها تتيح لكل الفرد المشاركة في صياغة القوانين واتخاذ القرارات الى جانب السلطة، وكلما اتسعت مشاركتهم كلما ارتفعت قدرتهم في صيانة وحماية حقوقهم وحررياتهم، وينقطع الطريق أمام كل محاولة للتفرد بالسلطة والأستبداد بها. أما أهتمامه في العدالة تعود لأعتقاده الراسخ ان غيابها يعني أنعدام وجود الحقوق والحريات، إذ تمثل "آلية لتحقيق التوازن بين العام والخاص وبين حريات الفرد والحريات العامة، بمعنى ان حماية وتحقيق النوع الأول لايجد ضرراً في الثانية"<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم ان التشريعات والقوانين تنص بشكل مباشر بتطبيق العدالة للجميع، لكن في كثير من الأحيان السلطة تنفذها بعيداً عن المضمون، وتمارس سلوكاً يكون في شكله قانوني ويسعى لتحقيق العدالة وهو في حقيقته يعرقل تنفيذ ذلك، ومن هذا المنطلق لايمكن لأي عقد اجتماعي أن يصل لهدفه النهائي دون العدالة، لأن مهمة أي سلطة هي أنصاف وتحسين أوضاع أولئك الذين يمثلون طرفاً رئيساً في العقد، والأنصاف يتحقق عن طريق العدالة ويعدها الفضيلة الأولى والقيمة العليا في المجتمع المدني - السياسي.



وأبتكر (مونتيسكيو) آلية للموازنة بين أولوية العدالة العامة و قدسية الحقوق والحريات الفردية، وذلك عن طريق الفصل ما بين السلطات وعمل على تطويرها بشكل أكثر فاعلية عند التطبيق، وقسم السلطات إلا ثلاث أقسام التشريعية ومهمتها تشريع القوانين والتنفيذية تطبيق أحكام القانون، والسلطة الأخيرة هي القضائية وهنا يكمن تميز أطروحته الفكرية عن غيرها، لأنه جعلها سلطة رقابية وجزائية، وأختصاصها الأول يشكل آلية رقابية على السلطة التشريعية للتأكد من القوانين التي تشرعها وأنها تستهدف الصالح العام، وأيضا على السلطة التنفيذية لتضمن عدم مخالفتها القوانين، والأختصاص الثاني يتعلق بتنفيذ الأحكام والعقوبات ضد المخالفين أي كانت مكانته، وعد تأكيده على استقلال القضاء بهذا الشكل من أجل توفير أكبر قدر من الحماية للحقوق والحريات، لأن وجود هذه السلطة جزء من السلطات الأخرى من شأنه ان يقود بشكل أو بآخر نحو استغلالها أو التعسف في استخدامها، وأستقلال إرادة القاضي عن أي تأثير من السلطات الأخرى سيضمن عدم تعرض المصالح والحقوق والحريات العامة لأي خطر.

ونجد ان عملية الفصل هذه وتوزيع الأختصاصات والصلاحيات ما بين السلطات، لم تمنح الأستقلالية لها وحسب وإنما منحها القدرة لتحد كل واحدة منها الأخرى وتحارب وتمنع أي شكل من أشكال انحراف مسار السلطة السياسية نحو التفرد والطغيان، ليصبح القانون يمثل إرادة الجماعة والأخيرة هي من تمنع أساءة استخدام السلطة، عبر خلق حالة من التوازن والعدالة بين العام والخاص في الحقوق والحريات، وهو ما جعل الإرادة الجماعية تتفوق وتتنصر على الإرادة الفردية.

إلا أن (روسو) ذهب الى أبعد من ذلك بكثير، إذ سعى الى إيجاد حالة مستمرة من الأستقرار ما بين القانون والعدالة، لضمان أستممرار الإرادة الجماعية وتوسع قدراتها في إدارة شؤون السلطة، وسعى لترسيخ فكرة إدارة السلطة من قبل الإرادة الجماعية وعدها جزء حيوي من طبيعة شكل السلطة وممارستها، وليس مجرد طرف او جزء ساهم في إنشائها طبقاً للعقد الأجماعي، والأخير وفق منظوره اختلف شكله ومضمونه عن العقود الأجماعية السابقة، لأن أصل نشأتها لا يستند على قبول ورضا أطرافه



المتعاقدين، وإنما على كيفية وممارسة التزامات العقد لأنه يمثل " آلية لإقامة المجتمع المنظم والانتقال به من حالة الطبيعة الى حالة المدنية وبموجبه يتنازل الأطراف في العقد عن حقوقهم وحررياتهم الطبيعية مقابل حصولهم على الحقوق والحريات المدنية لنحل المساواة في شكلها المدني محل الطبيعي ويصبح العقد الوسيلة الشرعية ليتحول الأفراد فيها من رعايا الى مواطنين ويقدرها معنى وقيمة المساواة والحرية"<sup>(١)</sup>.

والمساواة والحرية في حالة المدنية مكملان لما كان الأفراد يتمتعان به في حالة الطبيعة لكن بشكل أكثر تنظيم وشمولية، لذلك يشكلان أساس التعبير عن الإرادة الجماعية لذلك العقد الاجتماعي الذي وضعه قائماً على أساس الشراكة الاجتماعية والسياسية، إذ تشترك كل إرادة فردية مع الإرادات الأخرى لتكوين إرادة جماعية واحدة، واطلق عليها " تسمية الإرادة العامة التي تستهدف المصلحة العامة لأنها تمثل إرادة إنسانية متجردة عن الأهواء والأنانية وتصبح إرادة أخلاقية سامية ومتضامنة لذا يجب التفريق بين الإرادة العامة وإرادة الجموع، الأولى تتعالى على المصالح الشخصية أما الثانية تمثل الصورة الطبيعية للإرادات الخاصة التي تحركها الأطماع وحب الذات والسيطرة"<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك أن الإرادة العامة تمثل إرادة الأغلبية التي ينبثق منها العقد ومنه نشأت السلطة السياسية، لتصبح إرادة الأغلبية متمثلة بالشعب وتسيطر على إرادة الأقلية الذين يمثلون الإدارة العليا للسلطة في المجتمع المدني- السياسي، وعن طريق الإرادة العامة وقوة مشاركتهم في إصدار القوانين والتشريعات، سيتمكنوا من حماية حقوقهم وحررياتهم والحفاظ عليها، كما ستكون لديهم قدرة أكبر على منع إساءة استخدام السلطة أو الهيمنة على قراراتها وقوانينها لصالح إرادة الأقلية، وبذلك توصل (روسو) الى وضع وسائل وآليات تساهم في خلق حالة مستقرة ومتوازنة لطبيعة العلاقة بين القانون والعدالة، عن طريق إشراك كل إرادات أفراد المجتمع لإبرام العقد السياسي من جهة، ومنحهم حق المشاركة في سن القوانين والتشريعات بما يحقق مصالحهم العامة بشكل متوازن ومتكافئ من جهة أخرى.

إذن عملية المشاركة الفاعلة شكلت الأساس لتحقيق الاستقرار ما بين القانون والعدالة، ومنحت القوة والغلبة للإرادة الجماعية على الإرادة الفردية، كما أستطاع من تحقيق



نوع آخر من التوازن والأستقرار الفريد من نوعه بين الحقوق الفردية والجماعية، على الرغم ان أغلب طروحاته ركزت على أعلاء شأن الإرادة الجماعية وتفوقها على الإرادة الفردية، لكن ذلك لم يعني لديه الغاء أو تقييد الحقوق الفردية، وأوضح الهدف الأول للإرادة الجماعية هو تحقيق المصلحة العامة، وبما أن كل واحدة من الإرادات الجماعية تمثل إرادة فردية في حالة الطبيعة قبل الأنتقال الى حالة المدنية - السياسية، فإن ذلك يعني أن جميع هذه الإرادات ستتعاون وتتوافق فيما بينها لتحقيق غايات ومصالح كل إرادة منها، ليشكلون مجتمعين مصالح فردية وجماعية في الوقت ذاته، وتصبح هذه العملية جزء من مخرجات الحياة والعمل السياسي في المجتمع المدني - السياسي، وهذه العملية أستطاعت ان تحقق التوازن بين حقوق الفرد في حالة الطبيعة وحقوقه كمواطن في الحالة المدنية- السياسية.

عبر هذه الطروحات الفكرية يتضح لنا أن (روسو) وضع أسس فكرية وسياسية عميقة التفكير، ومرنة التطبيق فيما يتعلق بنظرية السلطة وآليات ممارستها، ونتيجة لذلك ولدت وترسخت في الفكر السياسي الغربي الحديث فكرة ان الشعب هو المصدر الفعلي للسلطة، وأنه من المستحيل ان يتنازل عن سلطته وسيادته لصاحب السلطة، لانه سيرض حقوقه وحرياته للخطر، ومن هذه الفكرة سادت مسألة ان ممثلي جميع السلطات هم ليسوا أوصياء أو سادة على الشعب، وانما هم مثليه وموظفين لديهم ومهمتهم تتلخص بتشريع وتنفيذ قوانين تحافظ وتحمي حقوقهم وحرقاتهم وممتلكاتهم على أكمل وجه.

ان الطروحات الفكرية لفلاسفة ومفكري العصر الحديث حول نظرية السلطة أسهمت في تغيير مسارها وتوجهاتها لاسيما ما يتعلق بالعلاقة بين الحكام والحكومين، وبعد ان كانت العلاقة فيما بينهما قائمة على أساس الطاعة المطلقة للمحكومين تجاه صاحب السلطة لان سلطته ترتبط بهالة من القدسية، تغيرت لتصبح طبيعة هذه العلاقة قائمة على الألتزام الأخلاقي والقانوني من قبل المحكومين تجاه السلطة، والأخيرة تحولت مؤسسة ذات بناء تنظيمي قانوني وسياسي تتلخص وظيفتها في ضمان وحماية الحقوق والحرريات والممتلكات للشعب، لأنه مصدر السلطة ووجود الحكام أو الملوك



وشرعيتهم مقترنة بمدى قدرتهم على ما يقدموه من حقوق وخدمات وأمن أزدهار ورفاهية، أن عملية التحول في العلاقة بين الحكام والمحكومين أسهمت تدريجياً في تطور نظرية السلطة في وقتنا المعاصر.

المبحث الثاني: مستقبل السلطة في ظل عولمة الديمقراطية

أولاً: النخب الاقتصادية وأثرها على الفاعلين التقليديين في السلطة

أن الثورة الصناعية أسهمت الى ترسيخ أفكار ومبادئ نظرية السلطة التي ظهرت في العصر الحديث، وفي الوقت الذي أشار البعض أن نتائج هذه الثورة انعكست فقط على الجانب الاقتصادي، إذ أسست "القيام نظام اقتصادي رأسمالي يركز على حرية العمل والمبادلات التجارية وضاعفت من نمو وتطور المؤسسات والشركات الإنتاجية الكبرى وأدت لتطور الاقتصاد وتحسين الأوضاع المعيشية للمجتمعات وإزدهار حركة الإنتاج والاستثمار وتوسيع الحركة العمرانية"<sup>(1)</sup>، لكنها أثرت أيضاً وبشكل مباشر على طبيعة البنية الاجتماعية والسياسية في المجتمع الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر، وأسهمت في القضاء على بنية المجتمع التقليدي بأفكاره وتقاليده وقيمه التي سادت لقرون عدة، وحلت محلها التوجهات المدنية- السياسية وأجتاحت المجتمع ككل وليس لطبقة إجتماعية محددة، وقادت نحو بزوغ حركة نهضة فكرية وثقافية واسعة المدى تؤمن بأهمية العلم وقدرة العقل البشري على تحقيق التقدم والرفاهية، مما رفعت من نسبة مستوى الوعي الفردي الذي بدأ يبحث ويطالب بحقوقه المدنية والسياسية، ويرفض استغلاله من قبل من يمتلك وسائل العمل والإنتاج.

وكان لتدهور الأوضاع الاقتصادية لطبقة العمال بسبب هيمنة أصحاب رؤوس الأموال على عمليات الإنتاج واستغلالهم لدرجة ضاعفت من سوء أحوالهم المعيشية، دفعت الى "رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي لديهم ودفعتهم لمواجهة من يسلب حقوقهم بقوة القانون وأجبار السلطة السياسية على وضع الحلول للتوفيق بين حقوقهم وبين مصالح أصحاب رؤوس الأموال وسيطرتهم على حركة النشاط



الاقتصادي ليتحول هذا الأمر من ضمن أولويات السلطة السياسية في المجتمع الغربي آنذاك<sup>(٢)</sup>.

وإذ كانت الموجة الأولى والثانية للثورة الصناعية<sup>(٣)</sup> قادت نحو زيادة اهتمام الفاعلين التقليديين في السلطة وبأشكالها الثلاث ( التشريعية والتنفيذية والتقليدية)، بتنظيم حياة مجتمعاتها والعمل على وضع تشريعات وقوانين تضمن حقوقهم وحرياتهم وتعمل على حمايتهم، لكنها لم تخلو من تعرضها للعديد من المعوقات بسبب تأثير النخب الاقتصادية<sup>(٤)</sup> على الفاعلين التقليديين، وسعيهم إلى تعطيل جهودهم الرامية لخدمة وحماية المصالح العامة وتطوير المجتمع المدني- السياسي، ولعبت طبيعة التوجهات الفكرية والسياسية للفاعلين التقليديين دوراً مهماً في تقليل تأثير النخب الاقتصادية على قراراتهم القانونية والسياسية، لذلك العلاقة فيما بينهما تقاطعت وكانت تتجه دوماً لصالح المجتمع وضمان وحماية حقوقه وفق العقد الاجتماعي- السياسي للإرادة الجماعية ذات الطابع القانوني والأخلاقي تجاه المجتمع كونه الأصل لمصدر كل سلطة.

أن تأثير النخب الاقتصادية آنذاك أخذ طابعاً متذبذباً على التشريعات والقوانين التي يتبناها الفاعلين التقليديين لاسيما في أوروبا، إذ سعوا دوماً إلى خلق حالة من التوازن بين حقوق ومصالح العامة وبين مصالح طبقة النخب الاقتصادية وبشكل يضمن عدم الأخلال باستقرار الأنظمة السياسية والاجتماعية القائمة، وبذات الوقت يمنع من محاولة سوء استخدام السلطة وتعطيل عمل العقد الاجتماعي- السياسي، هذه الأوضاع تغيرت تماماً بعد الحرب العالمية الثانية والتي تزامنت مع الموجه الثالثة للثورة الصناعية<sup>(٥)</sup> في القرن العشرين.

أن هيمنة النخب الاقتصادية على عملية التصنيع والإنتاج في ظل ضعف تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، مقابل زيادة اعتمادها الكلي على تلك الصناعات وتحديدًا في مرحلة الحرب الباردة، منحها قوة وتأثير أكبر لتصبح لوبي ضغط سياسي- اقتصادي على الفاعلين التقليديين في السلطة، إذ لم تكتفِ في التأثير بالقرارات السياسية لضمان مصالحها الاقتصادية، وأما بدأت تطمح لتكون جزء من العملية السياسية برمتها وبدأت تنافس عمل وتوجهات الفاعلين التقليديين وليس التأثير فيهم فقط، و أستطاعت تنفيذ



خطوات هذا الطموح تدريجياً بعد أن أصبح " رجال الأعمال ومدراء الشركات المختصة بتصنيع السلاح والتقنيات التكنولوجية يشغلون مناصب إدارية في الحكومات المحلية والبلدية ليحصلوا على امتيازات وحقوق تشريعية وتنفيذية داخل أطار الحكومة لتوسيع شبكة علاقاتهم ونشاطهم مع قيادات الأحزاب السياسية المؤثرة على الرأي العام للتأثير على الناخبين في الانتخابات لزيادة دعم نفوذهم سياسياً"<sup>(١)</sup>.

وشكلت عملية مشاركتهم ووجودهم ضمن أطار الشؤون الإدارية للقيادات الوسطى خطوة أولى نحو دعم وجودهم كجزء من العملية السياسية، وعلى الرغم أن وجودهم غير مرغوب فيه من قبل رجال السياسة، وفي نظرهم هم مجرد تجار ورجال أعمال لا يفقهون بأمور الحياة السياسية ومتطلباتها، ويمتلون ظاهرة غريبة وغير مقبولة على مستوى العمل السياسي، ولم تستطع النخب الاقتصادية في مرحلة الحرب الباردة تغيير نظرة الفاعلين التقليديين نحوهم، وأستمر هذا الحال حتى ظهور الموجة الرابعة للثورة الصناعية<sup>(\*)</sup> وتزامن ظهورها مع أنتهاء مرحلة الحرب الباردة وما نتج عنها من متغيرات على مستوى السياسة الدولية، وما أحدثته من نقلة نوعية في عملية تحول السلطة لاسيما بعد أنتشار أستخدام الفضاء الألكتروني في عمليات التصنيع والأنتاج والخدمات، وأتساع الأعتماذ على وسائل الأعلام الرقمية الأمر الذي منح النخبة الاقتصادية نفوذاً كبيراً داخل الأحزاب السياسية المؤثرة في العمل السياسي، وشكل ذلك بداية عملية التغيير من النمط التقليدي لعمل وتوجهات قادة وأعضاء تلك الأحزاب.

وأهم تلك المتغيرات تمثلت بتغيير طبيعة التوجهات الأيديولوجية لتلك الأحزاب، بعد ان كانت تهتم بشكل رئيس "بمسائل تطوير الحقوق والحريات للمجتمع وكل ما يتعلق بجودة قيمه ومصالحه، نجدها اليوم تعكس قيم ومصالح النخب الأقتصادية وفرضها على المجتمع مما أدى لحدوث سلسلة من الأقسامات الفكرية والأيديولوجية ما بين الأحزاب السياسية"<sup>(١)</sup>، وعدت شبكة العلاقات الواسعة ما بين قادة الأحزاب والنخب الأقتصادية سبباً رئيساً في تغيير تلك التوجهات، فضلاً عن تنبيههم لأفكار وأهداف تلك



النخب ضمن إطار عملهم السياسي مما أدى الى أضعاف القوة التقليدية للأحزاب الرئيسة الكبرى.

ووصلت الى حد الأخلال بطبيعة تنظيماتها وعملها وعلاقتها المنظمة بين القادة والقاعدة الحزبية، ونتج عنها اتخاذ قرارات تتعلق بطبيعة عملها مثل تنظيم مؤتمراتها وطرق تمويلها وآليات تقديم مرشحيها بشكل سري، بعد أن كانت علنية ووفق سياقات وقوانين تخص كل حزب وكل مرشح يكون من داخل الحزب، أن هذا التغيير أسهم في " خلق حالة من الفراغ السياسي داخل منظومة تلك الأحزاب بسبب زيادة حجم الأنقسامات الفكرية والأيدولوجية مما مكن رجال الأعمال ومدراء الشركات الاتجاه نحو ملء ذلك الفراغ ونتيجة لذلك تحول الولاء من الحزب وأفكاره الى الولاء للنخب الاقتصادية وتوجهاتها مما أسهم في تغيير الإجراءات المتبعة لدى كل حزب في كيفية ترشيح اعضاءه وآلية اختياره لتمثيلهم في الحكومة"<sup>(٢)</sup>.

أن ظاهرة ضعف وتلاشي الولاءات لحزب ما وتحوله لصالح النخب الاقتصادية بدأت تتضح منذ بداية الألفية الثالثة، لاسيما أن أغلب تلك الأحزاب تعتمد بشكل كبير على تمويل حملاتها الانتخابية للوصول الى أعلى مراكز السلطة بدعم تلك النخبة، مقابل تقديم خدمات لها تتمثل بأقتراح ودعم مشاريع قوانين وسياسات تحقق أكبر قدر ممكن لمصالحها، وعلى الرغم من صدور العديد من التشريعات والقوانين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية تحت ما يسمى شفافية تمويل الأحزاب، للحد من دعم المؤسسات والشركات ورجال الأعمال للأحزاب السياسية بشكل غير مشروع في سبيل التأثير على توجهاتها السياسية، لكن أغلب الأحزاب لاتلتزم بالقوانين والضوابط وتمارس عملية التحايل عليها بعدة وسائل<sup>(٣)</sup>، أن وجود النخب الاقتصادية جزء من منظومة الأحزاب السياسية أسهم في وصولها لأعلى مراتب السلطة، ومعنى ذلك أن دعمها ووجودها داخل الأحزاب لم يغير من طبيعة توجهاتها وهيكلتها وتنظيمها فقط، وإنما تغيير طبيعة النخب الحاكمة أيضا أو ما يسمى بالطبقة الأسمى لأدارة شؤون الدولة وكان أعضاءها يشغلون مناصب تتمتع بالنفوذ السياسي والقانوني ويمثلون نخبة النخبة الإدارية المحترفة لوضع السياسات العامة للدولة وضمان رفاهية مجتمعاتها، لكنها بدأت



بالتلاشي ليحل محلها نخبة اقتصاد السوق الحرة وأقتصاد المعرفة والمعلوماتية الذين يمثلون النخبة الحاكمة أو المهيمنة على سلطات الحكم"<sup>(١)</sup>.

أن الموجة الرابعة للثورة الصناعية أحدثت صدعاً كبيراً في الشكل التقليدي لطبيعة السلطة وممارستها نتيجة لتغيير طبيعة النخبة المشاركة والفاعلة في سلطة عالم اليوم، وفيما مضى كانت النخبة الحاكمة تضم الفاعلين التقليديين الذين ركزوا في نشاطهم السياسي وإدارتهم للسلطة على المسائل الاجتماعية التي تتعلق بجودة حياة الأفراد والمجتمع، لكن تلك المتغيرات الحادة في طبيعة ممارسة السلطة وتنظيم آلياتها وطريقة إدارتها وتوجهاتها، أدت للتأثير في طبيعة فاعليتها لاسيما أن المؤثرين فيها تعددت توجهاتهم ومصالحهم بعد تغلغل جهات مختلفة من النخب الاقتصادية في عمق العمل السياسي وإدارة السلطة، لحماية مصالحهم وضمان توفير فرص أكبر لتمرير أهدافهم ومشاريعهم وفق الأدوات القانونية التي يحصلون عليها عبر مشاركتهم في عملية إدارة السلطة.

هذا الوضع أثر بشكل واضح على شرعية ومصادر السلطة ذاتها، وليس في طبيعة شكلها وممارستها وهو ما أشار إليه (ألن توفلر) بدقة حينما شخص مسألة تحول السلطة في ظل الموجة الرابعة للثورة الصناعية بالقول أن هيمنة شخصيات "على وسائل الإنتاج والأعلام أمثال دونالد ترامب وغيره وتحولهم الى رموز حية يتجاوز نفوذهم مستوى الشركات ويتجه نحو المشاركة في العمل السياسي يمثل بداية لنشوء نظام جديد يعمل على أحداث تغيرات جذرية في توزيع السلطة ونفوذها وهو المعنى الحقيقي لتحول السلطة ولا يعني نقلها من شخص أو جماعة الى أخرى وإنما تغيير جوهري طرأ على مصادرها الرئيسة وأستغلالها من قبل صفة المجتمع والسيطرة عليها"<sup>(٢)</sup>، وعدت عملية تغيير شكل السلطة وانتقالها من الجانب الأيديولوجي الى الجانب الاقتصادي- المعرفي هو أساس عملية تحول السلطة، وبمعنى أدق أن هيمنة التوجهات الليبرالية الاقتصادية على العمل السياسي بدلاً عن الليبرالية السياسية، قادت نحو تغيير شكل السلطة وعملية ممارستها وطبيعية نفوذها وتركز قوتها بيد النخبة الاقتصادية لا السياسية.



ونجد أن مظاهر هذا التغير تجسد بشكل واضح في الولايات المتحدة الأمريكية في حكم كل من الرئيس رونالد ريغان والرئيس جورج دبليو بوش إذ أنتقل "مركز الثقل السياسي وممارسته داخل الحكومة لصالح المسائل الاقتصادية وإعادة هيمنة طبقة الأثرياء على القرارات السياسية عندما سن الكونغرس قوانين عديدة أبرزها خفض الضرائب لصالح الأثرياء مقابل رفع ضريبة الضمان الاجتماعي مما رفع من نسبة الفقر والبطالة بسبب ارتفاع نسبة العجز الفيدرالي للولايات المتحدة الأمريكية وبلغ المرتبة السابعة والعشرين على المستوى العالمي"<sup>(٣)</sup>، من هنا نجد ان الموجة الرابعة للشورة الصناعية منحت النخب الاقتصادية أدوات مختلفة للأحتكار المنظم ليس لمصادر السلطة الرئيسة (القوة والثروة والمعرفة) وحسب، وإنما أحتكار ممارسة النشاط السياسي لدعم مصالح شركائهم ومؤسستهم.

وتشير إحدى الأحصائيات أن هذه النخب والتي أصبحت جزء من الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الأعوام (١٩٩٤-١٩٩٨) " حصلت على ثلثي المساهمات المالية من صناعة الأسلحة و(٥٨٠%) من المساهمات في صناعة النفط والغاز والزراعة وبذلك أستطاع الأقتصاد الرأسمالي الجديد من توسيع ما سمي بديمقراطية السوق ورفعوا شعار الرأسمالية تقود نحو الديمقراطية وعبرها يتم تحقيق السلام العالمي المنشود"<sup>(١)</sup>.

وهذا يعني أن الأشراف الحكومي على مؤسسات الدولة كأحد الآليات التي وضعها منظرو السلطة السياسية لتحقيق عملية التوازن ما بين المصالح العامة والخاصة، قد تلاشت تدريجياً بسبب هيمنة النخب الاقتصادية عليها، ونتيجة لذلك أصبحت الممتلكات الحكومية جزء من الممتلكات الخاصة للنخب الاقتصادية وبتمكين أدوات القانون، وعد أتساع عملية تحجيم دور الدولة في المجال الأقتصادي منفذاً مهماً يمنح تلك النخب فرص متعددة لتغلغل بعمق في العمل السياسي وممارسته وصولاً لأعلى مراتب السلطة، وبالتزامن مع تمتعها بالحريات الاقتصادية وتفوقها بالعمل السياسي، ضمن إطار الثقافة والتقاليد الديمقراطية التي تم ترسيخها في المجتمعات الغربية لسنوات طويلة، من هنا سعت لأستغلال كل تلك المعطيات وتوجيهها لصالحها فقط وأستخدمت



أسلوب أزواجية المعايير لثقافتها الديمقراطية، لتنفيذ أجنداتها وطموحاتها الاقتصادية والسياسية على مستوى السلطة.

هذه المعطيات أدت الى تغيير شكل وممارسة السلطة، وأثرت على البنية السياسية للديمقراطية الليبرالية، بسبب هيمنة النخب الاقتصادية على السلطة، وتركزت بشكل خفي في العمل السياسي ومارست تأثيرها تحت شعار المساواتية وضمن الصالح العام، وعلى الرغم من تصاعد حدة الانتقادات تجاه وجود هذه النخب ضمن العمل السياسي ألا أن ذلك لم يجد من حركتها ونفوذها وأستطاعت بالنهاية من توظيف التطور الحاصل على مستوى القوة والثروة والمعرفة لصالحها لأحداث تغيرات شاملة في طبيعة السلطة وممارستها.

وتمكنك في النهاية من تغيير النمط الهرمي والتقليدي لجوهر السلطة وأثرت بشكل واضح على الفاعلين التقليديين في السلطة، وأضعفت من قدراتهم السابقة مما أحدث أرباكاً مستمراً بمراكز القوى السياسية، وظهرت ملامحه علانية في مطلع القرن الواحد والعشرين لاسيما بعد تغيير التوجهات الفكرية والسياسية للسلطة، ليس على مستوى السياسة الداخلية وحسب وإنما الخارجية ايضاً.

ثانياً: تحول السلطة بين التوازن السياسي وإعادة توزيع الفاعلين

أن الإنجازات التي تحققت بعد الموجة الرابعة للثورة الصناعية، أسهمت في عملية تغيير أنماط القوة والثروة والمعرفة على المستوى الاقتصادي، وقاد لتشكيل نظام متكامل اقتصادياً تمكن بسرعة من السيطرة على التنظيم الهرمي للاقتصاد سواء المحلي أم الدولي، مما أعطى للنخب الاقتصادية فرصة كبيرة لتغلغل تدريجياً في العمل السياسي ومن ثم السيطرة على شكل وطبيعة القرارات السياسية، وسيطرهما على الاقتصاد الصناعي - المعرفي قد يبدو أمراً طبيعياً لو ساد في المجتمعات الأخرى التي لا تتبنى الديمقراطية، أو ان مسيرتها في تبني الديمقراطية تعاني من أزمة فكرية وبنوية وسياسية عدة، لكن الغريب في الأمر هو هيمنة هذه النخب على القرارات والتوجهات السياسية في المجتمعات الغربية التي ترسخت فيها الديمقراطية منذ قرون طويلة، ومن المعلوم أن أي



نظام سياسي يخضع لسيطرة ونفوذ نخبة ما من غير الممكن أن تستمر فيه الديمقراطية وأن أرتبطت بأصوله الفكرية والأجتماعية والسياسية، هذا ما أشار إليه (هنتغتون) بالقول " ان التطور السياسي له منطقه الخاص والذي يتصل بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للتطور لكنه يختلف عنه حين يتجاوز التحديث الاقتصادي والاجتماعي التطور السياسي عندها تحدث عملية التراجع والأخطاط السياسي بسبب وجود فئات جديدة يتعذر أستيعابها في النظام السياسي القائم"<sup>(1)</sup>.

وعلى الرغم أن الرؤية الفكرية (هنتغتون) أرتبطت بالواقع السياسي للدول النامية بوصفها لا تعرف شكل وممارسة الديمقراطية في أنظمتها السياسية، ألا أنها في ظل المتغيرات المعاصرة التي شهدتها المجتمعات الغربية لما بعد الموجة الرابعة للثورة الصناعية، أرتبطت بمستقبل الديمقراطية الليبرالية وتعد بنظره هو وغيره من المفكرين المعاصرين الأنموذج الأفضل للحكم كونها نظام حكم شرعي مستمد من سلطة الشعب طبقاً لفكرة وشعار (حكم الشعب للشعب) للنظام الديمقراطي، ونجد ان كل النجاح الذي حققه المجتمع الغربي في ظل حركة التطور التاريخي للحكم الديمقراطي، بدأ بالتراجع تدريجياً بعد هيمنة وسيطرة النخب الاقتصادية على مسار حركة التطور الديمقراطي، والأخيرة أصيبت بالجمود بسبب ضعف حالة التوازن بين إرادة الدولة (التفيدية) وبين مؤسساتها الأخرى ( التشريعية والقضائية)، وجميعها تشكل الضمان الفعلي لنجاح وأستمرار سير عمل النظام الديمقراطي وتطوره.

ويشير (هنتغتون) أن عملية قياس حجم التطور المؤسساتي في أي نظام سياسي يتطلب توافر مجموعة من المعايير هي " التكيف والتعقيد والبساطة والأستقلالية والترابط لتبتعد عن التبعية والتفكك"<sup>(2)</sup>، وكلما كانت المؤسسات على درجة عالية من التكيف مع محيطها الداخلي لاسيما أنه يرتبط ببيئة متغيرة بشكل مستمر على مختلف الصعد، أستطاعت من أحراز تقدم ملموس على أرض الواقع، ويمنحها أيضاً المرونة اللازمة لطبيعة التعقيد الذي تتضمنه المؤسسات، ويقصد بالتعقيد هنا مسألة تخصيص الوظائف وتقسيم العمل داخل كل المؤسسات المعنية لأي نظام سياسي، وعملية التكيف المرن مع التعقيدات الوظيفية لعمل المؤسسات هي من تمنح حركة تطورها قفزات نوعية بعيادة



عن البيروقراطية، والقدرة على تقييم حاجات ومتطلبات بيئتها الخارجية مما يعطيها مؤشرات واقعية وحقيقية لحجم وطبيعة التعديلات التي يجب أن يقوم بها الفاعلين على مستوى بيئتها الداخلية، وبهذه الطريقة تصبح عملية التطور في حركة دائمة ومستمرة، وهو ما حققته المجتمعات الغربية في ظل حركة التطور التاريخي للديمقراطية.

لكن ذلك تغير تماماً بعد سيطرة النخبة الاقتصادية على توجهات العمل والقرار السياسي، وما أشار إليه (هنتغتون) حول مسألة ضعف التطور السياسي للديمقراطية في المجتمعات النامية، أصبح اليوم ينطبق على المجتمعات الغربية منذ القرن الواحد والعشرين، لأسباب عدة أهمها أن سيطرة تلك النخب على الأنشطة السياسية وقراراتها في الحكومات القائمة إذ سهلت العولة وأدواتها تقليص الحواجز التقليدية أمامها، ومنحتها القدرة على إيجاد فئات إجتماعية تابعة أو مرتبطة بمصالح القطاع الخاص والتي سميت بجماعات المصالح المنظمة، إذ تطالب بمزيد من الدعم والمشاركة السياسية على مستوى إدارة السلطة، وهدفها لايرتبط بخدمة الصالح العام وإنما تحقيق أكبر قدر ممكن لمصالح الشركات والمؤسسات الاقتصادية، عن طريق تحشيد توجهاتها المنظمة تجاه الإدارة الحكومية ليم الضغط عليها لتنفيذ مطالبهم وبالنتيجة هذه العملية تصب في صالح النخب الاقتصادية بشكل غير مباشر.

وعلى مستوى القرارات السياسية شكل وجود بعض أعضاء هذه النخب كجزء من الأحزاب السياسية أو ضمن مراكز صنع القرار، سبباً لأضعاف حالة التوازن السياسي، وتستند إلى ثلاثة معايير رئيسة لتحقيق عملية التوازن هي "إستقلالية إرادة الدولة والقانون وآليات المساءلة وتعد عملية ضرورية وأخلاقية للمجتمعات الديمقراطية لأن حالة التوازن يمكن أن تولد قوة كافية للدفاع عن شرعيتها الديمقراطية وتتمكن من تطبيق القانون على الجميع من دون أستثناء للنخب ومطالبها وبالنتيجة فأن عملية ممارسة السلطة تتسم بقوة الأستقلالية التامة وخدمة مصالح المجتمع بشكلها الواسع"<sup>(1)</sup>، وعد وجود النخب الاقتصادية ضمن المسار السياسي الديمقراطي وأستغلال أدواته لصالحها سبباً لأحداث فجوة كبيرة بين هذه المعايير، مما جعل من الديمقراطيات المعاصرة في المجتمعات الغربية أشبه ما تكون محاصرة أو غير قادرة على التطور بسبب عولمتها،



وهذه النخب أستطاعت من توظيفها لضمان هيمنتها السياسية والاقتصادية وحماية مصالحها على المدى الطويل، أن عجزت السلطة الحاكمة في المجتمعات الغربية عن إعادة التوازن السياسي الذي كانت تتمتع به سابقاً، نتيجة عولمة الديمقراطية وبتأثير النخب الاقتصادية كونها تمثل اليوم أحد أعمدة الفاعلين الجدد على مستوى السلطة، وحذر (كريستوفر لاروش) من قوة تأثير الأثرياء والمتنفذين الذين يحتكرون الصناعات العسكرية وشركات الطاقة والمؤسسات المصرفية الكبرى على التوجهات السياسية للسلطة، لاسيما بعد مباشرتهم لتنفيذ خططهم عبر تحديد المسار الأفضل لتمكينهم من الوصول لأعلى مراتب السلطة، للتحكم في عملية صنع القرار بما يتناسب ومصالحهم الضيقة وأطلق (لاروش) ما عرف (بثورة النخب)<sup>(١)</sup> عليهم وظهرت توجهاتهم الحقيقية منذ تسعينيات القرن الماضي، إذ إستغلوا قدراتهم وطاقاتهم الاقتصادية ووظفوا المعايير الديمقراطية ليستغلوا مركز ثقلهم لأخترق والتأثير في جميع المفاصل المؤسسية للدولة، لتصبح خاضعة لأجنداتها وتوجهاتها بعد أن كانت تخضع لحكم القانون والمسؤولية الأخلاقية والقانونية تجاه الشعب، الذي يعد المصدر الفعلي لكل شكل من أشكال القوة والسلطة في الأنظمة الديمقراطية ومصالحه تسود على أي مصلحة ضيقة الأفق والأبعاد.

أن تضاعف حجم وقوة هذه النخب وتنوعها وقدراتها في التحكم بعملية صنع القرار السياسي، أدت الى خلق أزمة حادة ما بين الحرية والمساواة ويعدان أحد أهم أسس الديمقراطية، مما نتج عنه تراجع كفاءة صناعة القرار من قبل الفاعلين التقليديين بسبب صراعها مع الفاعلين الجدد، الذين حولوا الحرية من قيمة عليا الى مجرد سلعة سياسية ضمن إطار النظام الديمقراطي، كما أحدثوا خللا في عملية التوازن السياسي " لأن الأحزاب السياسية في المجتمعات الديمقراطية أصبحت رهينة النخب وجماعات المصالح القوية وفقدت استقلاليتها ولم تعد تمثل قاعدتها الجماهيرية وإنما توظفها لجعلهم أصوات انتخابية لتمرير سياسات ومصالح النخب وليس مصالح جماهير الأحزاب"<sup>(١)</sup>، ونتيجة لذلك فقدت السلطة إرادتها المستقلة وسياستها العقلانية في وضع الخطط والبرامج السياسية لخدمة مجتمعاتها، وأصبحت خدمة مصالح تلك النخب الهدف الأساس لها بعد أن فرضت وجودها بقوة القانون وحماية الدستور وفق نظامها الديمقراطي، وعد تنوع



توجهات ومصالح تلك النخب وتضارب المصالح فيما بينهم سبباً آخر، للأخلال بعملية التوازن السياسي داخل المنظومة الديمقراطية للسلطة ومؤسساتها المختلفة، بمعنى أن مسألة الصراع والتنافس ما بين الفاعلين الجدد أنتقلت من الجانب الأيديولوجي الى الجانب النفعي البحت، وأصبح أساس الصراع والتنافس يتلخص بمدى قدرة هذه الفئة أو تلك على تحقيق أكبر قدر من المكاسب لصالح النخبة التي تنتمي إليها عبر أستغلال وجودها في السلطة، وهو مؤشر خطير لمدى تحول السلطة وتغيير طبيعتها وشكل ممارستها عما كانت عليه في السابق، وتشير عدد من الدراسات أن أغلب القوانين التي صدرت عن المؤسسات التشريعية في العديد من الدول الغربية كانت "قوانين متضاربة وغير منسجمة بسبب اختلاف التوجهات والمصالح بين الفاعلين من هذه النخب، وتحول هدفهم في تشريع قانون ما، ليس أنتاج سياسات جديدة تخدم الصالح العام وإنما تركز لخدمة مصالح جهة معينة وتكون عائقاً ضد مصالح الجماعة المضادة من جنس تلك النخب (الضد النوعي) وأن كانت نتائجها النهائية ستخدم الصالح العام، أن هيمنة هذه النخب على الأدوات التشريعية والقانونية الديمقراطية أنتجت فوضى من القرارات واللوائح القانونية لاتتوافق مع حاجات ومتطلبات مجتمعاتها، وأصبحت عملية الصراع والتنافس بين النخب الفاعلة سياسياً لحماية مصالحها وأميازاتها الضيقة، ينتج عنها أحياناً سياسات وقرارات تخدم الصالح العام ضمن سلسلة العمل التشريعي.

وهنا تكمن المفارقة بين ماضي وحاضر ومستقبل العملية الديمقراطية كسلطة شرعية مستقلة، هدفها حماية الصالح العام، لتتحول في ظل العولمة نحو حماية مصالح وأميازات النخب الاقتصادية، ونتيجة لذلك بدأت تتحول السلطة نحو إستبداد الأقلية بعد تعاضم نفوذ الأثرياء والمنتفذين في المجال الاقتصادي، مما حول الديمقراطية لأداة للحد من نشاط الأغلبية ومشاركتها الفاعلة على المستوى السياسي، والسعي لتجسيم دورها لأنها تعارض وتهدد مصالح الأقلية، وتشكل الأزمة المالية العالمية العام (٢٠٠٨) وما نتج عنها من قرارات أدت الى أنقاذ المؤسسات المالية الكبرى على حساب دافعي



الضرائب، لاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية والتي أضرت قراراتها بالصالح العام وأهدار المال العام وحقوق شريحة واسعة من المجتمع الأمريكي.

ويعد ما يجري اليوم في فرنسا من احتجاجات شعبية واسعة (حركة القمصان الصفراء)<sup>(١)</sup> ضد حكومة الرئيس (ماكرون) بسبب رفع نسبة الضرائب، مما أثقل من كاهل المواطن الفرنسي وأثر على نتاجه الاقتصادي الفردي وعلى حقوقه الأساسية، وهي مثال آخر على مدى أستبداد الأقلية (النخبة الاقتصادية الفرنسية) إذ مارست ضغوطها وتأثيرها على الحكومة الفرنسية لفرض سياسات معينة لصالحها وأن أضرب بالصالح العام، وأدى ضعف التوازن السياسي ما بين إرادة الحكومة وقوة الفاعلين من النخبة الاقتصادية الى محاولة تهديد الأستقرار السياسي الفرنسي، بعد تصاعد حدة الأحتجاجات نتيجة أستخدام القوة والعنف ضد المتظاهرين تحت مسمى " أن تطبيق القانون يتطلب أن تقف الى جانبه القوة وهذا الشعار رفعه الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديغول لتبرير العنف المقتن تجاه المجتمع أي كان شكله لأجباره على تنفيذ سياسات تعد جزء من المستحقات الاقتصادية للنخب المؤثرة على السياسة العامة للدولة وآلية حماية مصالحها"<sup>(١)</sup>، أن السلوكيات والممارسات التي قامت بها الحكومة الفرنسية كرد فعل ضد المتظاهرين تظهر لنا مدى قوة تأثير هذه النخب على السلطة القائمة في فرنسا، مقابل ضعف وقدرة القانون على حماية المصالح والحقوق والحريات الفردية للمواطن الفرنسي من أستبداد الأقلية، سواء كانت جزء من السلطة القائمة أو المؤثرة عليها وعلى الرغم أن الدستور الفرنسي الحالي الذي يعبر عن روح الثورة الفرنسية، وأسهم في ترسيخ حكم القانون كونه الضابط والمقيد للسلطة ومنعها من الأستبداد، لكن ما يحدث اليوم في فرنسا يثبت لنا أن تأثير النخب الاقتصادية أستطاعت من أختراق القوانين التي تحمي وتدعم الحريات وأضعفت من قوة التمثيل الديمقراطي في النظام السياسي الفرنسي.

وبشأن المساواة فأثما من أهم مؤشرات مدى قدرة وفاعلية السلطة الحاكمة للأستجابة لمصالح وحاجات المجتمع، وهذه الفكرة ركيزة أساسية لنجاح وأستمرار النظام الديمقراطي، وفي ظل تأثير تلك النخب أصبحت المساواة قيمة شكلية من دون مضمونها



لأن أدوات تحقيقها وحماتها مسيطر عليها من قبلها أو من قبل ممثليهم في السلطة، وهكذا تحولت الحرية والمساواة أمتياز للنخب وليس حقاً أساسياً من حقوق أفراد المجتمع، والديمقراطية الليبرالية لتستمر بالتطور والتفاعل المثمر.

هذا الوضع شكل عائقا أمام تطور الديمقراطية وجعلها تدور في فلك الجمود الفكري، نتيجة هيمنة النخب الاقتصادية على قوة القانون وأدوات المساءلة والرقابة، وهو ما أثر بشكل مباشر على إعادة توزيع الفاعلين في السلطة، وبسببه تقلص حجم المشاركة السياسية للفاعلين التقليديين وتراجع تأثيرهم ونفوذهم في السلطة، مقابل زيادة وجود الفاعلين الجدد الذين يمتلكون مصادر القوة والثروة والمعرفة وجميعها تشكل عناصر أساسية للوصول للسلطة، وبما أن عملية إعادة توزيع الفاعلين تمثل أداة لقياس مدى جودة الأنظمة الديمقراطية إذ تعد الضمان الفعلي لتطورها ونجاحها وأستمرارها، لكن اليوم نجدها قد تراجعت كثيراً بسبب تذبذب وضعف قدرتها في رفع مستوى إعادة توزيع الفاعلين نتيجة هيمنة النخب على مصادر السلطة وأحتكارها للنشاط السياسي لصالحها، فضلاً عن تمكنها من فرض رؤيتها السياسية والاقتصادية على حساب الرؤية الكلية لمصلحة مجتمعاتها.

وتعد "زيادة نسبة مشاركة الأحزاب اليمينية المتطرفة في النشاط السياسي والانتخابات بشكل عام، مقابل تراجع قوة ونفوذ الأحزاب الديمقراطية والأشترابية المعتدلة في السلطة على مستوى الانتخابات العامة في السنوات الأخيرة في أوروبا"<sup>(1)</sup>، مؤشراً كبيراً على مدى تقلص قدرة الأنظمة الديمقراطية في عملية إعادة توزيع الفاعلين والموازنة بين الفاعلين التقليديين والجدد، مما انعكس بشكل واضح على طبيعة وشكل ممارسة السلطة، لاسيما أن عودة الأحزاب اليمينية المتطرفة تزامن مع هيمنة النخب الاقتصادية على النشاط السياسي، ووجدت عبرها منفذاً وأداة فاعلة لتمير أجندها وحماية مصالحها.

كما أن وصول (دونالد ترامب) الى رئاسة البيت الأبيض والذي يعد من أهم الأقطاب الاقتصادية المؤثرة في الولايات المتحدة الأمريكية، يكشف لنا بوضوح مدى تراجع قدرة النظام على إعادة توزيع الفاعلين في السلطة عبر نظامها المؤسساتي وحتى على



مستوى السلطات الثلاث، وعبر هذه المعطيات نجد أن الجمود الفكري والتصلب المؤسساتي الذي أصاب الديمقراطية في المجتمعات الغربية، يعود لقوة نفوذ وهيمنة النخب الاقتصادية على النشاط السياسي وزيادة تمثيلها داخل السلطة ومؤسساتها لحماية مصالحها، عبر توظيف مخرجات أنظمتها السياسية لصالح أمتيازاتها مما دفعها للحصول على أكبر حصة ممكنة في السلطة لضمان استمرار ذلك الحال.

أن تراجع دور الدولة في السيطرة على النخب الاقتصادية شكل سبباً رئيساً في عملية اختلال توازنها السياسي، وضعف قدرتها على رفع مستوى إعادة توزيع الفاعلين السياسيين لخلق حالة من التوازن بين المصالح العامة ومصالح تلك النخب، لضمان استمرار عملية التطور الديمقراطي، وتعد حالة الاختلال هذه جزءاً لا يتجزأ مما يعرف اليوم بحالة الأخطاط السياسي للديمقراطيات المعاصرة في المجتمع الغربي، وهو ما أشار إليها (فوكوياما) إذ وجد أن تشابك مصالح النخب الاقتصادية وتنوع توجهاتها وأهدافها، وتبنيها لسياسات غير عقلانية نتيجة لقدرتها في تحويل سيادة القانون وآليات الرقابة والمساءلة إلى خليط متعدد الأمتيازات ويحقق لها أهدافها وطموحاتها اللامحدودة، مما أضعف من جودة النظام السياسي الديمقراطي وتحويله إلى منظومة فكرية وسياسية غير قادرة على التطور والانتقال نحو مستوى أعلى، وعاجزة عن تحقيق التوازن السياسي في إعادة توزيع الفاعلين على مستوى السلطة، وفق مبدأ المساواة والعدالة عبر رفع مستويات المشاركة السياسية وممارسة الشفافية في الرقابة، وجميع هذه الإجراءات تقود نحو أنتاج سلطة لديها قدرة عالية في الاستقلالية والكفاءة في صنع واتخاذ قرارات منضبطة ومتوازنة تراعي مصالح الشأن العام.

ألا أن هيمنة تلك النخب على عملية التوازن السياسي واختيار فاعليه وليس توزيعهم وفق مبادئ الديمقراطية، أدت لتقليص هذه الإجراءات وأحياناً ألغت من وجودها مما قوض من استقلالية السلطة وشفافيتها وقدرتها على تثبيت دعائم سيادة القانون، وأنعكس سلباً على تطور الديمقراطية وبما أنها تشكل الأساس لشرعية السلطة فأن استمرار شرعيتها مرهون بقدرتها على أداء دورها على مستوى تحقيق التوازن وإعادة توزيع الفاعلين، وضعف أداءها الحالي يعني الأخلال بشرعية السلطة والأخير يمثل أعلى



سلم الأخطاط السياسي وهو التحول الأخير للسلطة في الفكر الغربي والذي أسماه (فوكوياما) "بالفبتوقراطية وهو عبارة عن نظام حكم غير متوازن يقوض أفاق العمل الجماعي المشترك والذي يحد من قدرة الأغلبية في صنع القرار السياسي وفق نظام منضبط قائم على التوازنات وبعيداً عن هيمنة النخب ذات المصالح ضيقة الأفق"<sup>(١)</sup>.

أن بقاء الديمقراطية تعاني من ظاهرة الجمود الفكري والأخطاط السياسي لايعني عدم تمكنها من التطور والأرتقاء، وأما يعني فقدان مصدر شرعيتها الحقيقي كونها تمثل أساس السلطة ووجودها، ومسألة فقدان الشرعية يعني أنتفاء العقد الاجتماعي لأنعدام استقلال السلطة المكونة للعقد، كما أن ضعف الإرادة الجماعية في صنع وأتخاذ القرارات المنظمة لوجودها ضمن العقد الاجتماعي- السياسي الذي يعد أساس وجود السلطة وأنبثاقها في المجتمع المدني- السياسي.

#### الخاتمة:

أن السلطة ظاهرة إجتماعية لأرتباطها بالمجتمع، ولايستقيم بدون وجود السلطة لأتغير تبط بقدرته على تحقيق التوازن بين المصالح الفردية والجماعية من جهة، وبين إقامة نظام يضمن تحقيق المساواة والعدالة للمصالح العام ككل من جهة أخرى، ووظيفة السلطة في عالمنا المعاصر أنتقلت من سعيها لضمان سيادة القانون والأستقرار السياسي والمجتمعي، الى تحقيق الرفاهية السياسية والأقتصادية للمجتمع، إذ أصبح الأستقرار السياسي والأقتصادي هدفاً مشتركاً بين من يحكم والمحكومين.

كما ان السلطة ظاهرة قانونية، لأن القانون أصبح هو المصدر الحقيقي للسلطة إذ استطاع كفالة وضمان الحقوق والحريات الأنسانية وتنظيمها بين الأفراد، وأسهم بتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكومين بشكل يضمن ألتزام الأفراد بقرارات السلطة وتوجهاتها طالما أنها لاتتضر بمصالح الجميع، وبالمقابل تمنع الحاكم من التفرد بالسلطة او أساءة استخدامها لتحقيق غايات محددة من شأنها أن تضر بحياة المجتمع، وخضوع السلطة لسيادة القانون لم يكن بالأمر اليسير وأستمر الصراع لأتبات قوة القانون ومصدريته للسلطة لسنوات طويلة، وشكل تطور نظرية السلطة وأرتباطها بالمنطق



العقلي والتفكير المبني على اسس الإرادة الجماعية، أحد أدوات دعم تفوق قوة القانون وسيادته على السلطة وإرادة من يدير شؤونها.

ألا أن عملية تحول السلطة في الفكر الغربي المعاصر أخذت منحى خطير جداً، لاسيما في ظل هيمنة النخب الاقتصادية وبدأت السلطة تفقد بناءها التنظيري المتوازن مما أضعف من الإرادة الجماعية المحفزة للتطور السياسي للديمقراطية، وحول من قيم الحرية والمساواة والعدالة التي تعد جزء أساسي من التكوين الفكري والسياسي للديمقراطية الى مجرد واجهة وأمتياز لمن يمتلك القدرة، وبسبب ذلك وصلت السلطة في المجتمعات الغربية الى مرحلة الأخطاط السياسي نتيجة لأحياء ما يعرف بالطبقة الثرية المهيمنة على السلطة ومصادرها ومخرجاتها، والتي سعى الفلاسفة والمفكرين الغربيين الى الغاء وجودها عبر نظرية سياسية متكاملة للسلطة تسهم في تطوير المجتمع المدني - السياسي وفق مسار عقلائي متوازن.

لكن عملية سيطرة وتحكم النخب الاقتصادية بمجريات العمل السياسي والمهيمنة على مصادر وأدوات السلطة قادت نحو تعطيل حركة تطور نظام الحكم الديمقراطي، وأثرت على حقوق وحرريات أفراد المجتمع، وأفرغت مبادئ المساواة والعدالة من مضمونها الفكري والأنساني في عصر العولمة، وتحولت لجرد شعارات يستخدمها المنتفذين من هذه النخب لتمير أجنداتهم السياسية للوصول لأعلى مراتب السلطة لضمان أكبر قدر ممكن من مصالحهم لا مصلحة العامة، مما عرض السلطة السياسية بشكلها الديمقراطي للجمود وعدم القدرة على التطور والانتقال بالمجتمع المدني - السياسي لمرحلة أكثر تطوراً ويتفوق على كل الإنجازات التي تحققت سابقاً لصالح المجتمع.

## The transformation of power in contemporary western thought

### Abstract:

In accordance with contemporary Western thinking, power is an organized force with a high ability to achieve stability and social security because it possesses tools based on rational organization, which helps it to control the behavior of the individual and society and prevent them from practicing the



processes of exclusion and discrimination against others in pursuit of their interests and needs. Vision The philosophers and thinkers of the theory of social contract can consolidate it, which changed the form and nature of power from the traditional heritage to the construction Which has contributed to the development and development of civil society - Western political, and despite the success of this experiment, especially after the guarantee and protection of human rights and freedoms in accordance with constitutional and legal frameworks, but the process of transformation of power in the globalization of democracy deviated from the natural course of development and lost its strength and balance because of hegemony And the influence of economic elites on political action, which reflected negatively on the intellectual and political structure of liberal democracy.

(<sup>1</sup>) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٠ .  
 (<sup>٢</sup>) ينظر: مصطفى مرتضى محمود، المثقف والسلطة دراسة تحليلية، لوضع المثقف المصري، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٣ .  
 (<sup>٣</sup>) ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠): الماني الأصل وأحد أهم مؤسسي علم الاجتماع، كان عالما مختصا بالاقتصاد والسياسية، وركز في دراسته وأبحاثه في علم الاجتماع على تحليل ظاهرة الحداثة وكيفية تشكلها وتأثيرها على المجتمعات الصناعية المتقدمة، له العديد من المؤلفات الشهيرة الأخلاق البروتستانتية وروح الراسمالية، لمزيد من التفاصيل ينظر، محمد عبدالكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار مجدلاوي للنشر، عمان، ٢٠١٢، ص ٦٢-٦٣ .

(<sup>3</sup>) Jean Lapierre, LE Pouvoir Politique, presses Universitaires de France, p52.

وللمزيد ينظر: مصطفى مرتضى محمود، المثقف والسلطة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١ .  
 (<sup>١</sup>) نقلا عن: طارق علي الكسار، مجلة العلوم السياسية والقانونية، ع(٢٧)، المجلد الثالث، كلية القانون والعلوم السياسية، جامعة بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٥٥ .

(<sup>٢</sup>) البروتستانتية: وتعني المحتجون وهو أسم أطلق على حركة احتجاجية من قبل بعض الكنائس التي كانت تطالب بتحقيق الإصلاح الديني من داخل الكنيسة، ثم تحولت بعد نجاحها الى أحد المذاهب الدينية والفكرية للمسيحية، ومن الناحية العقائدية لا تختلف عن باقي المذاهب المسيحية لكنها ترفض بعض الطقوس الدينية مثل قدرة رجل الدين على محو الخطايا ومنح الغفران الألهي للمزيد، ينظر: فرانسوا شاتيليه وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١، ص ٧٦١ .

(<sup>1</sup>) Colin Farrelly, Introduction to Contemporary Political Theory, London, 2004, p 48.

(<sup>1</sup>) Colin Farrellyop-cit,p52.



(2) Leo Strauss, & Joseph Cropsey, History Political Philosophy, University of Chicago 1987, p501.

(3) Ibid, p505.

(1) Leo Strauss, & Joseph Cropsey, op-cit, p533.

(2) ينظر: صلاح علي نيوف، مدخل الى الفكر السياسي الغربي، جامعة الأكاديمية الاقتصادية، الدمارك، ٢٠٠٩، ص ٨٠.

(1) صلاح علي نيوف، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢ - ٨٤.

(2) Leo Strauss & Joseph Cropsey, The second part, op-cit, p79.

(1) جان جاك شافيليه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٢٠ - ١٢٥.

(2) المصدر السابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(1) ينظر: عقيل عيدان، التنوير في الأنسان شهادة جان جاك روسو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٨٨ - ٨٩.

(2) ينظر: المصدر السابق، ص ٩٧.

(1) ينظر: فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ترجمة مجاب الأمام، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، ٢٠١٦، ص ٩٠ - ٩٦.

(2) المصدر السابق، ص ٩٨.

(1) ظهرت الموجة الأولى للثورة الصناعية في بريطانيا العام (١٧٨٤) بعد اختراع الآلة البخارية لتستخدم على المستوى الصناعي والزراعي والنقل، اما الثانية ظهرت في العام (١٨٧٠) بعد اختراع الكهرباء واستخدامها على نطاق واسع في مختلف الميادين، للمزيد ينظر: John s. Dryzek, Theories of the Democratic State, Edition by Australia, p111.

(2) النخب الاقتصادية وتمثل مجموعة او أقلية من المجتمع تتمتع بعدد من الاعتبارات الموضوعية التي تميزها عن باقي المجتمع مثل الذكاء والأبداع والطموح وتمتلك سلسلة من الإمكانيات العلمية والأقتصادية والمالية والتي تمنحها القدرة في التأثير بالآخرين وتحديدًا على مستوى السياسية والتأثير في صنع القرار للمزيد ينظر: Ibid, p 115.

(1) الوجه الثالثة للثورة الصناعية منذ العقد الثاني للقرن العشرين، وتزامن ظهورها مع اختراع وانتشار التقنيات التكنولوجية والرقمية وانتشار العولمة واستطاعت من تطوير الصناعات التقليدية والعسكرية وزيادة النمو الأقتصادي للمزيد ينظر علي حبيش، الوجه الثالثة وقضايا البقاء، كتاب الأهرام، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٨.

(1) Steve Fraser, Ruling America, Harvard University Press, 2005, p71.

(2) الموجة الرابعة للثورة الصناعية وتمثل أكثر مرحلة متطورة في وقتنا الحاضر، وظهرت في النصف الأخير للقرن العشرين وتميزت بالذكاء الأصطناعي وتكنولوجيا النانو والتكنولوجيا الحيوية وظهرت تسمية هذا

المصطلح لأول مرة في منتدى دافوس العام (٢٠١٦)، للمزيد ينظر: John s. Dryzek, op-cit, p125.

(1) Ibid, p128.



(٢) نعوم تشومسكي، صناعة المستقبل، ترجمة ونشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ٨٩-٩٢.

(٣) يعد تمويل الأحزاب السياسية في المجتمعات الغربية موضع جدل ومتابعة ورقابة دائمة من قبل جهات حكومية ومؤسسات الشفافية الرقابية، وعلى الرغم من صدور العديد من القوانين التي تحد من عملية تمويلها غير المشروع لكن لم يمنعها من الحصول على تمويل مالي دون الكشف عنها لاسيما مساهمة ودعم الكثير من المؤسسات الاقتصادية لتلك الأحزاب مقابل حصولها على مكاسب سياسية واقتصادية للمزيد ينظر مقال منشور بعنوان لاجحة لوضع قواعد بخصوص شفافية تمويل الأحزاب على الموقع الإلكتروني: <https://www.swissinfo.ch/ara/politics/44360872/>

(١) ينظر: نعوم تشومسكي، صناعة المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١-١٠٤.

(٢) ينظر: الفن توفلر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة، تعريب فتحي حمد بن شتوان، طرابلس ليبيا، ط ٢، ١٩٩٦، ص ٤١-٤٧.

(3) John s.Dryzek, op-cit,p233.

(1) Ibid,p234-235.

(١) ينظر: صموئيل هنتنغتون، النظام السياسي ومجتمعات متغيرة، ترجمة نمية فلو عبود، دار التنوير للنشر، بيروت، ط ٢٠١٧، ص ٣، ٨٨-٩٠.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٤.

(١) ينظر: فرانسيس فوكوياما، النظام السياسي والأنحطاط السياسي، ترجمة معين الأمام، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، ٢٠١٦، ص ٥٤-٥٥.

(٣) ثورة النخب ويقصد بها النخب الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الغربية والتي تحتكر مصادر القوة والثروة والمعرفة وتؤثر بشكل سلبي على واقع المجتمعات وتعمل على تقليص حقوقهم وحررياتهم، وهذه النخب أصبحت في ظل العولمة تهدد مستقبل المجتمعات الغربية ومصالحها العامة، للمزيد ينظر:

Christopher Lasch, Revolt of The Elites and The Betrayal of Democracy, Washington DC PRESS, 1996, P 135

(1) Op-cit,p136-138.Christopher Lasch,

(2) John s.Dryzek, op-cit,p241.

(٣) ظهرت هذه الحركة الاحتجاجية في فرنسا بعد إعلان الحكومة سلسلة من الزيادات الضريبية على المواطن الفرنسي، مما دفع جهات شعبية عدة الى استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لتحشيد المجتمع ودفعه نحو المطالبة بحقوقه بعد استمرار التوجهات الاستعلائية للحكومة تجاه الشعب ومطالبه، وبدأت أثرها منذ نوفمبر العام ٢٠١٨، للمزيد ينظر مقال منشور بعنوان ثورة القمصان الصفراء تشل فرنسا وتحاصر ماكرون على

الموقع الإلكتروني/ <https://www.ghadinews.net/news/38822/>

(١) ينظر: الفن توفلر، تحول السلطة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢-٦٣.

(١) ينظر: فرانسيس فوكوياما، النظام السياسي والأنحطاط السياسي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٨-٦٠٩.

(١) ينظر: فرانسيس فوكوياما، النظام السياسي والأنحطاط السياسي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٢-٦٢٤.

